رحيل

أمير الإنشاد الديني وسلطان العاشقين

الشيخ أحمد التوني غادر إلى «دنيا الأرواح»

إنّه أحد أكبر منشدي الصعيد، وخال ياسين التهامي الذي يعدّ زعيماً لدولة المديح النبوي في مصر. خلافاً لمعاصريه أمثال أحمد البرين، وعبد النبي الرنان، كان أكثرهم ميلاً إلى المغامرة والتجديد والقبول بالانخراط في الحوار مع الموسيقى الروحية في العالم. كان يجاهر بحماسه لهذا النوع من التجارب، نافياً عنه تهمة الابتعاد بالطقس الصوفي عن محتواه

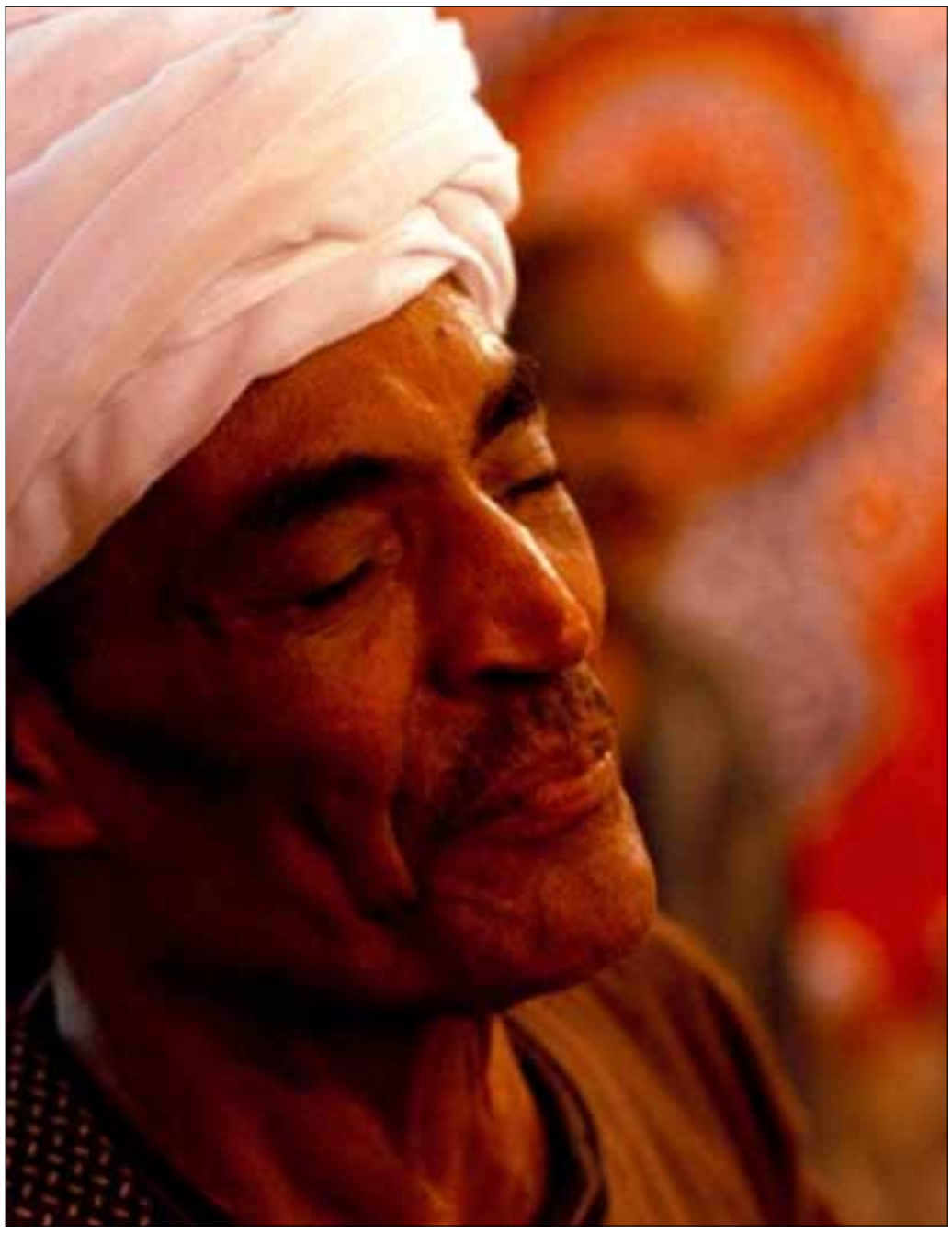

القاهرة ـ **سيد محمود**

لا أحد يملك تفسيراً لحالة الحزن التي انتابت العديد من المبدعين والنشطاء المصريين أول من أمس وهم يودعون الشيخ أحمد التوني. مثّل رحيل المنشد الديني صدمة لعشاقه ومريديه، وهم العشاق الذين أضافتهم الثورة المصرية إلى الجمهور التقليدي الذي كان يتواصل مع الشيخ، وكان في أغلبه من أبناء صعيد مصر الذين يقدّرون مكانته.

من قريته الحواتكة في أسيوط (600 كلم جنوب القاهرة) في صعيد مصر، كان الشيخ التسعيني أحد أشهر وأكبر منشدي صعيد مصر. أُطلق عليه لقب «ساقي الأرواح» و«سلطان المنشدين». قد لا يعرف كثيرون أنّه خال المنشد الديني الأشهر ياسين التهامي الذي يعدّ زعيماً لدولة المديح النبوي في مصر.

لكن ما يميز التوني خلافاً لمعاصريه من منشدي الصعيد الكبار أمثال الشيخ أحمد البرين، وعبد النبي الرنان، أنه كان أكثرهم ميلاً إلى المغامرة والتجديد والقبول بالانخراط في تجارب الحوار مع الموسيقات الروحية في العالم. يعرف مقتنو أعماله قيمة الفيديو الشهير الذي يقدّمه في الأغنيات الصوفية على إيقاعات الفلامنكو مع فرقة غربية، وإلى جواره فتاة تؤدي رقصات صوفية تجمع بين المولوية ورقص الحضرة المعروف في الموالد المصرية. ولعلّ الشيخ التوني هو الوحيد إلى جانب الشيخ محمد الهلباوي الذي انخرط في مغامرة من هذا النوع، وكان يجاهر بحماسه لهذا النوع من التجارب لإغناء تجربته نافياً عنه تهمة التقليد أو الابتعاد بالطقس الصوفي عن محتواه وتجلياته.

قبل عشر سنوات، غامرت «مؤسسة المورد الثقافي» بتقديم أحمد التوني وأحمد البرين، وعبد النبي الرنان في أمسية على «مسرح الجنينة» ضمن فقرات البرنامج الرمضاني «حي». ليلتها، جذب التوني بأدائه الجمهور القاهري الذي كان تعاطيه مع الغناء الصوفي يقتصر على معرفة محدودة بأعمال الشيخ ياسين التهامي، الذي ذاعت تجربته لأنّه قطع القرى والنجوع المصرية إلى العاصمة. لكن التوني تمكن عقب الثورة المصرية من الاقتراب من شباب الثورة بعد موافقته على تقديم حفلات داعمة لها شبابها بفضل موافقته على تقديم حفلات داعمة للثورة بدعوة من «دار ميريت» ومؤسسها الناشر محمد هاشم.

> تمكن من الاقتراب من شباب الثورة بعد موافقته على تقديم حفلات داعمة لها

في الحكايات التي كان يرويها التوني عن أسباب انخراطه في الغناء الصوفي والإنشاد، ثمة ايمان واضح بفكرة العلامات التي ترسم المصير. كان دائماً يشير إلى ساعة بكائه عند «مقام السيدة زينب» في القاهرة لأنه كان يرغب في المديح عند أبوابها وهو في سن لم يكن مؤهلاً فيها لهذه المهمة، لولا أن جاء إليه منشد آخر من أسيوط هو رمضان حسن عيسى ووضع على كتفيه عباءة وبشّره بالقبول قائلاً «لقد قبلت السيدة زينب رئيسة الديوان دعوتك». وهنا أنشد لها «كريمة ياللي مقامك حلو منور».

كذلك، تحدث طويلاً عمّا يسميه في الصوفية بـ«الأسباب» التي تؤدي إلى التواصل وعن الغناء وحالة الذوبان التي تجعل طقس الغناء تواصلاً مع المحبوب، وانفصالاً تاماً عن الواقع، ليس بمعنى التغييب أو المغالاة، لكن القصد أن يتحول أعضاء الجسد إلى أدوات للتسبيح بعظمة الخالق، وهو تصور شائع يجمع بين معتقدات المتصوفة وما يسمى في مصر بالدين الشعبي المعتمد على الطقس المعيشي وإذابته في صلب الحياة اليومية. اللافت أنّه في بداياته، لم يكن التوني متحمساً للأداء بصحبة فرقة موسيقية. لكنه قَبل بذلك بعد سنوات عدة، مكتفياً بتَخت صغير يضم أفراداً من عائلته بينهم ابنه وحفيده يعزفون على آلات بسيطة هي الناي وآلة إيقاع وكمان. كانت

> كان يتولى بنفسه ضبط الإيقاع من خلال النقر بمسبحةٍ على كأس زجاجي

للشيخ التوني تعريفات خاصة للموسيقى، للنجاة بها من فخاخ التحريم التي حاول المتشدّدون نصبها في طريقه. كان يؤكد: «الموسيقى تجلب الجمهور، وتقرب المعنى، وتطرب النفس، وترقرق المشاعر». وشأن الصوفية الكبار، بشّر التوني في ما كان يقدمه لقيم التسامح العليا والتقارب بين الأديان، نافياً عنها فكرة الصراع. الموسيقى في سهرات الإنشاد الصوفي تؤدي إلى «نوع من الصفاء والحب، والإبداع والتشويق».من خلال الإنشاد والموسيقى، كان الشيخ يهدف إلى إيصال رسالة التصوّف الإسلامي إلى العالم كله. ويعتقد أنّ التصوف صالح لجميع الأديان وليس حكراً على المسلمين. على الصعيد التقني، لا خلافات كبيرة بين أداء التوني وياسين التهامي الذي كان يعتبر نفسه تلميذاً من تلاميذ خاله. كان الشيخ يركز في إنشاده على الكلام، لا على الألحان التي كانت مجرّد خلفية مرافقة. هو ينشد بشكل فطري قائم بصورة أساسية على الارتجال مما يحفظه من أشعار كبار أئمة التصوف ومنهم أبو العزايم، وابن الفارض والحلاج. كان يتولى بنفسه ضبط الإيقاع من خلال النقر بمسبحةٍ على كأس زجاجي وهو ينشد «رنت زجاجي».

> كان يملك تعريفات خاصة للموسيقى للنجاة بها من فخاخ التحريم

zoom

هكذا تحدث مولانا

القاهرة ـ **مايكل عادل**

ليس بالهيّن على شيخ أن ينتقل من مدينة منفلوط في صعيد مصر، إلى ميدان التحرير في قلب القاهرة لمجرد أن يحيي ليلة ذِكر في حُب الثورة المصرية خلال اعتصام شهر تموز (يوليو) عام 2011. بمخالفة كُل التوقعات، استجاب الشيخ أحمد التوني لمكالمة الناشر محمد هاشم الذي دعاه إلى مؤازرة الشباب في الميدان بالإنشاد والمدح والذكر. وقبل أن يحاول أن يصف له كيف يحبّه أولئك الشباب، كان يجيبه بالموافقة وبأنه سيصطحب الفرقة كاملة ويأتي ليملأ ميدان التحرير بصوته وروحانيات كلماته ونغمته المحببة للقلوب.

من الغريب أن ترى بمصاحبة شيخ مُسنّ مخضرم في مجال الإنشاد الديني، كل هذه الفرقة التي تجمع الإيقاعات والكمان والربابة والناي والوتريات المختلفة. ذلك لا يمكن أن يدلّ إلا على أننا أمام رجل تجاوز الشكل التقليدي لصعيدي مسن ومتديّن، ليصير فناناً عظيماً حقيقياً يهتم بإيصال رسالته بكُل دقة وبأفضل الوسائل والأدوات.

وعن رسالته تلك، قال الشيخ أحمد التوني إنّه يحمل رسالة سلام إلى العالم أجمع، رسالة سلام صوفيّة خالصة على أنغام الموسيقى تتحدى كُل أشكال التطرف والكراهية والعنف. وقد كان دائماً يتحدث عن فَضل الموسيقى على الروح، قائلاً إنّها ترقق المشاعر وترفع الروح والوجدان وتحمل المعنى للآذان، وتجمع الأحبّة إلى الجوار، ويقصد بالأحبّة هُنا الناس جميعاً.

حين كان يُسأل الشيخ التوني عن جماهيره من الغرب الذين قد لا يفهمون كلمات أناشيده ولا يعتنقون الإسلام، كان يردد دائماً بأن الصوفية شأن عام وروح راقية لا تنتقي القلوب والأرواح، بل تمس الجميع وتخص الجميع وتداعب وجدان الناس من دون تفرقة. ويضيف مثنياً على الموسيقى، قائلاً إنها تضفي الصفاء على الروح والإطراء على القلوب وتمنح السهرات وحلقات الذِّكر نوعاً من الدفء والحب.

لم يمسك الشيخ بورقة ليقرأ منها يوماً أشعاراً مما كان ينشدها على آذان المستمعين، بل حفظها سماعياً عن ظهر قلب وأباً عن جد. لم يحفظ لحناً واحداً، بل كان يعتمد دائماً على الارتجال وتوظيف تجليات فرقته بمنتهى التلقائية لخدمة الكلمات التي يحفظها ليردد على إيقاع الدف والطبلة كلمات أشعار الحلاج، وابن الفارض، وسيدي محمد أبو العزايم، مضيفاً إيقاعه الخاص بتحريك سبحته على كوبه الزجاجي. يلقي هذا الخليط في أحضان النغمة الخارجة من الكمان والناي، فيرمي على الجميع تلك الخلطة السحرية التي تعلّق قلوبهم في سقف القاعة، وأرواحهم في عنان السماء.

تلك السماء التي كان يناجيها بحاضنة الأولياء والصالحين، وجامعة الإنسان وموحّدة البشر. كما حملت سماء صعيد مصر والقاهرة نغمات الشيخ التوني، حملتها أيضاً سماء فرنسا وإسبانيا وسوريا والأرجنتين والبرازيل وتونس والمغرب. في كُل تلك الأمكنة وبالروح والشعور نفسهما، كان مولانا يغلق جفنيه على ما يرى ويطلق لروحه العنان عبر حنجرته، مناجياً القلوب، قائلاً «كل القلوب إلى الحبيب تميلُ، ومعي بهذا شاهدٌ ودليلُ».

وبين كُل هذه المحطات التي خطاها، قال إنّه ما عدا صعيد مصر، لم تتعلّق روحه بأماكن بقدر ما تعلّقت بمكانين لا يجمعهما أي صلة أو تشابه، هما مدينة طنطا في محافظة الغربية (شمال مصر) حيث مولد السيد البدوي، أحد أهم وأبرز الموالد المصرية، ومدينة مدريد الإسبانية، حيث تجربته الفريدة في مزج الإنشاد الصوفي بموسيقى الفلامنكو. كان يرتجف جسده النحيل كلما تحدث عنها وعما يشعر به كلما أطلق لروحه العنان ليطلق قصائد ابن الفارض في طياتها. بعد كُل تلك الرحلات التي ركض خلالها خلف روحه، وبعد كُل تلك الجولات التي جابت العالَم برسالة السلام والعشق والصفاء، وبعد كُل ذلك العَدو خلف نداءات القلوب لروحه، تركنا الشيخ محتضنين جسده النحيل المحبب لدينا، وانطلق بروحه إلى جوار الصالحين والأولياء الذين لطالما طاب ذِكرهم بأنفاسه وحسّه وموسيقاه. لم تكن هذه المرة رحلة قطار من الصعيد إلى ميدان التحرير، بل كانت رحلة الروح إلى عنان السماء.

حين وصل القطار بالشيخ التوني وجوقته إلى القاهرة في صيف 2011 ليحيي ليلته بين ثوار مصر، استقل سيارة وصلت به إلى شارع قصر النيل على مدخل ميدان التحرير ليستقبله الشاعر الشاب واضعاً حول رقبته «سبحة» تشبه إلى حد كبير تلك التي يمسك بها الشيخ ويداعب بها الكوب الزجاجي أثناء إنشاده، محدثاً رنة محببة للسامعين. صافحه الشاب، فمال عليه الشيخ ليسأله عن اسمه. أجابه الشاب «مايكل» ليجيبه الشيخ «مدد يا عدرا يا أم النور». تلك العبارة ظلّت تتردد على مسمع هذا الشاب حتى لحظة كتابته لتلك السطور.